بقلم : إدريس أوهنا

مع القرآن الكريم في مواقف حوارية

حوار الله مع الملائكة :

النص القرآني: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدِّس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون. وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) البقرة٣٠ـ٣٣.

خلاصات واستنباطات:

أولاً: نستفيد من قول الملائكة عندما قرر الله تعالى خلق آدم: (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) أنه إذا كانت علاقة الملائكة الكرام بالله تعالى المنزَّه عن كل نقص تقوم على أساس حرية التعبير، وحق إبداء الرأي، فمن باب أولى أن تقوم العلاقة بيننا نحن البشر سواء كأفراد أو كهيئات وجماعات، ونحن المتصفون بالنقص والقصور والخضوع للأهواء، على الأساس نفسه، فننبذ بذلك كل أشكال التعصب والإقصاء والانغلاق في علاقتنا مع الآخرين سواء الذين يتقاسمون معنا التوجهات نفسها أو الذين يخالفوننا في القناعات والتصورات.

ثانياً: يوحي قول الملائكة لله تعالى: (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدِّس لك) بأنه كان لديهم من شواهد الحال أو من تجارب سابقة في الأرض أو من إلهام البصيرة ما يكشف لهم عن شيء من فطرة هذا المخلوق، أو من مقتضيات حياته على الأرض، وما يجعلهم يعرفون أو يتوقعون أنه سيفسد في الأرض وأنه سيسفك الدماء... ثم هم ـ بفطرة الملائكة البريئة التي لا تتصور إلا الخير المطلق، وإلا السلام الشامل ـ يرون التسبيح بحمد الله والتقديس له، وهو وحده الغاية المطلقة للوجود، وهو وحده العلة الأولى للخلق... وهو متحقق بوجودهم، يسبحون بحمد الله ويقدسون له ويعبدونه ولا يفترون عن عبادته.(١)

إلا أن منطقهم هذا، على ما يستند إليه من قرائن يتهافت أمام المنطق الرباني، والحكمة الإلهية من خلق آدم المتمثلة في عمارة الأرض وتسخيرها، ولذلك قال لهم الله تعالى: (إني أعلم ما لا تعلمون).

والعبرة المستقاة من ذلك أن على المحاور ألا يؤمن بإطلاقته ما يعتقده من أفكار وآراء مهما تكن القرائن التي قد تبدو دالة على صوابها، إذ مهما كان رأيي صائباً في اعتقادي الشخصي، فإنه يحتمل الخطأ، ومهما كان رأي غيري خطأ، في اعتقادي الشخصي أيضاً، فهو يحتمل الصواب، وكما جاء في القرآن الكريم ـ في موضع آخر ـ : (وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) سبأ:٢٤.

ثالثاً: في حالة عجز المحاور عن إدراك أمر من الأمور، أو في حال وقوعه في خطأ من الأخطاء، فإن ما يفرجه الجو الصحي للحوار وكذا التواضع للحق والعلم، أن يعترف بعجزه، ويقر بمعبودية علمه: (قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم)، وهذا بطبيعة الحال يقتضي كبت الأهواء، واستحضار البعد العقدي والتعبدي والأخلاقي والمقاصدي في العملية الحوارية.

حوار الله مع إبليس :

النص القرآني :

(ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين. قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين. قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين. قال أنظرني إلى يوم يبعثون. قال إنك من المنظرين. قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين. قال أخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) الأعراف:١١ـ١٣.

خلاصات واستنباطات:

أولاً: إذا كان الله تعالى لم يستنكف عن محاورة إبليس اللعين، فإن في ذلك درساً لنا حتى لا نغلق باب الحوار مع أي كان.

ثانياً: نستخلص من هذا النص الحواري البديع كذلك، إن هناك أموراً ومسائل لا تقبل الحوار والنقاش من حيث القيام بها أو عدم القيام بها، وهي الأمور القطعية الثبوت والدلالة... فالسجود مثلاً ـ في الآية (٨٥) ـ امتثالاً لأمر الله عز وجل به لا يناقش، ولا يدخل فيه اعتبار لـ«النار» أو «الطين» أو غيره من الاعتبارات، لأنه كما يقول الأصوليون: «لا اجتهاد مع ورود النص»، أما الحوار والنقاش بهدف

فهم روح وفلسفة التكاليف والأحكام ومقاصدها، فهذا أمر محمود، يفيد في ترسيخ القناعة، وإيضاح الفكرة، وتقوية الالتزام.

ثالثاً: نستفيد منه أيضاً أن التكبر من الأمراض الخطيرة التي تفسد العمليات الحوارية وتعصف بها، وتؤدي إلى نتائج سلبية.

حوار الله مع آدم وحواء :

النص القرآني :

(فدلهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين. قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين. قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين. قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) الأعراف:٢٢ـ٢٥.

خلاصات واستنباطات:

أعلى ما نستفيده من هذا الحوار بين الله سبحانه وتعالى، وبين أبوينا آدم وحواء، تلك المراجعة الصريحة للذات، أو ما يعرف بالنقد الذاتي الذي قدمه آدم وحواء اعترافاً بخطئهما: (قالا: ربنا ظلمنا أنفسنا)، وهو ما يحتاجه المسلمون اليوم، جماعات وأفراد، في حواراتهم حتى تكون هذه الحوارات نافعة وهادفة تدفع بعجلة المشروع الحضاري إلى الأمام.

الحوار الداخلي :

«نموذج حوار إبراهيم مع نفسه»:

النص القرآني:

(وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جَنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين). الأنعام:٧٥ـ٧٩.

خلاصات واستنباطات:

نستخلص من هذا النص أن الحوار تجاوب وتواصل مع النفس قبل أن يكون تجاوباً وتواصلاً مع الآخر، إذ نجده يبدأ في حديث الإنسان مع ذاته، في حركة الفكر في الداخل، حيث يدور الجدل بين احتمال واحتمال، وفكرة وفكرة، وظاهرة ودلالة، في نطاق السلب هنا والإيجاب هناك، وذلك هو دوره في صنع العقيدة في الشخص المنتمي، وربما يتحرك الحوار في الداخل في عملية الالتزام والاستقامة في الخط والواقع، عندما يدور التجاذب بين منطق العقل، ومنطق العاطفة ونقاط الضعف، ونقاط القوة، وذلك هو دوره في تركيز الشخصية الملتزمة المستقيمة، وفي كلتا الدائرين تكون المهمة الحوارية، الوصول إلى وحدة الإنسان في التزاماته الذاتية فلا يبقى في الازدواجية التي تجعل منه إنساناً يتحرك بين الشيء ونقيضه في عملية اهتزاز فكري، وحسي، وعاطفي، لأن التعددية المتحركة في الذات لا تمنح الإنسان الطمأنينة والاستقرار.(٢)

فالمراجعة الذاتية باعتبارها قيمة تشكل قانوناً في التطور، توجب على الفرد المسلم الدخول في عملية حوارية مع نفسه، يراجعها، يحاسبها، يجاهدها، ينتقدها، يطهّرها، يقوّم مواقفها إلخ...، وإن غياب أو تغييب هذه المراجعة الذاتية أو هذا النقد الذاتي يعتبر من وجهة نظر الشرع منهجاً إبليسياً: (لاتلوموني ولوموا أنفسكم)، حين كان خطاب آدم عليه السلام وزوجه حواء خطاباً نقدياً يعبر بحق عن خلق رفيع: (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) الأعراف:٢٣.

وحاجتنا إلى الحوار مع النفس أو إلى التفكير الداخلي الذي يشكل المناعة والحصانة الذاتية تزداد في ظل الواقع المعيش الذي يعرف انفجاراً إعلامياً ومعلوماتياً رهيباً، وهجوماً فكرياً وثقافياً خطيراً، بوسائل وتقنيات جد متطورة وجذابة تستغلها العولمة الثقافية لتدمير الكيان العربي والإسلامي.

حوار إبراهيم مع أبيه

النص القرآني:

(واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً. إذ قال لأبيه يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً. يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً. يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً. يا أبت إني أخاف أن يمسّك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً. قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهرجني ملياً. قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً. وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا) مريم:٤١ـ٤٨.

خلاصات واستنباطات:

في زمن ارتفعت فيه نسبة العقوق، وانتفى الجو الدافئ عن داخل مؤسسة الأسرة... تأتي هذه الآيات لتطلعنا على إبراهيم وهو يحاور أباه بمحبة وهدوء ورقة وأدب... ومهما يكن رد فعل الأب شنيعاً وقاسياً يبقى موقف إبراهيم عليه السلام ثابتاً، وطريقته في مراجعة أبيه هي طريقته: حب ورأفة وحنان... وهذا درس بطبيعة الحال نستلهم منه كيف ينبغي أن يكون الحوار ـ في الوقت الحاضر ـ داخل الأسرة، وخصوصاً بين الأبناء والآباء في جو من الألفة والمحبة والاحترام، دون انفعال أو توتر، هذا بغض النظر عن أهمية أو تفاهة الموضوع مناط الحوار والاختلاف.

وهذا الأمر يعتبر قاعدة عامة في العملية الحوارية لأنه «كم من حالات تحاورية تدهورت وفشلت بسبب أن نبرة صوت المتحاور كانت حادة عندما ذكر شيئاً يتسم بنوع من الحساسية الخاصة لطرف الحوار الآخر، وهناك حالات أخرى أدت فيها تقلصات وجه المتحدث، وحركة يده إلى ترك انطباع لدى أحد أطراف الحوار بأن أحد المتحاورين يتكلم بأسلوب يشبه أسلوب التهديد والتحدي والعداء والاستهتار بالآخر وفي أحيان أخرى كان إيقاع المتحدث سريعاً وحماسياً، فتصور الطرف الآخر أن المتحدث منفعل ويريد أن يستأثر بالحوار، هذا في الوقت الذي ثبت فيه بالدراسة أن هذه الحالات كانت لا إرادية، ولم يقصد المتحاورون أي عداء أو تهديد أو جفاء أو

استهتار أو استئثار بالحديث، ولكنهم لا يشعرون بوقع ما يقومون به على الآخرين وحجم الازعاج الذي يتسببون فيه لغيرهم»(٣).

إن التفكير العميق والتعبير الهادئ هما الوسيلتان الناجعتان في أي حوار «أما المهاترة والمنافرة فأمر تستخدم فيه اللغة أداة صوتية للصراخ حيث تقف قنوات العقل، وتبدأ الحبال الصوتية في الارتفاع، ارتفاعاً ما يتماشى بشكل عكسي مع ضعف الحجة عندها ربما تمتد إلى الكف أو العصا فيتوقف العقل عن الكلام، ويصبح المتحاوران أطرشين يتّكالمان بلغتين متضادتين لأنهما كما قال الشاعر:

سارت مشرقة وسرت مغرباً

شتان بين مشرق ومغرب»(٤)

ـ هذا ونستفيد من هذا الحوار البديع أيضاً كيف أن أدب إبراهيم عليه السلام مع أبيه، وهو يحاوره، لم ينسه أولية آصرة العقيدة على آصرة القرابة عندما تمادى أبوه في الغي والضلال، وأبى إلا أن يستمر على دين آبائه الباطل، وقال: (واعتزلكم وما تدعون من دون الله)، وفي سورة الزخرف (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون. إلا الذي فطرني فإنه سيهدين) الزخرف:٢٦ـ٢٧، وفي سورة التوبة: (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم) التوبة:١١٤.

فكذلك ينبغي لكل ملتزم بدينه في وقتنا المعاصر أن يضحي بكل شيء: بماله ونفسه وذويه من أجل دينه وعقيدته، يقول تعالى: (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منم فأولئك هم الظالمون) التوبة:٢٣، ويقول: (لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) المجادلة:٢٢... ولنا عبرة في قصة نوح عليه السلام مع ابنه ولوط عليه السلام مع زوجه، وآسية بنت مزاحم مع زوجها فرعون، ومحمد ﷺ مع عمه أبي لهب.

فالمعاملة الكريمة للأقارب ومحاورتهم بالتي هي أحسن لا تعني أبداً طاعتهم في معصية الله تعالى حتى وإن كانوا آباءً، قال تعالى: (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) العنكبوت:٨.

وإذا كان الحوار مع الأقارب المعادين للدين ينبغي ألا يُقدِّم فيه المحاور الملتزم تنازلات تضرُّ بدينه وعقيدته، فمن باب أولى أن يكون ذلك مع المخالفين والمعادين للدين من غير الأقارب، بحيث لا نعطي ـ في حوارنا معهم ـ الدنية في ديننا، ولا نتنازل عن مقوم واحد من مقومات حضارتنا، ولا عن شبر واحد من ترابنا المقدس كالتراب الفلسطيني الذي يعتبر وقفاً على المسلمين أجمعين لا يحق التنازل عن حبة رمل منه باسم مفاوضات السلام ـ أو بالأحرى مفاوضات اللئام ـ، ولا نواليهم بأي شكل من أشكال الولاء، قال تعالى: (يأيها الذين آمنوا لا تتخذو اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم) المائدة:٥١.

الحوار مع المشركين :

النص القرآني:

(قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات إئتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) الأحقاف:٤.

خلاصات واستنباطات:

أولاً: أهمية الاستفادة من الكون، واستقاء الدليل والحجة منه في مواجهة الشخص المحاوَر وإقناعه.

ثانياً: نتعلم من الآية طريقة الاستدلال الصحيح، والمنهج السليم في المناقشة والمحاورة: (إئتوني بكتاب من قبل هذا أو اثارة من علم إن كنتم صادقين)، تماماً كما يقول الأصوليون: «إن كنت ناقلاً فالصحة أو مدعياً فالدليل»، وليس كما نلاحظ اليوم في واقعنا، حيث الاتهام بلا بينة، والحكم من غير دليل، مما يسهم في توسعة دائرة الخلافات بين الأحزاب والجماعات والأفراد.

ثالثاً: شساعة مجال العملية الحوارية بالشكل الذي تنفتح على كل القضايا والمسائل حتى العقدية منها، وبطبيعة الحال في حدود ما يجوز التحاور فيه شرعاً وعقلاً.

الحوار مع الملحدين :

النص القرآني:

(أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) الطور:٣٥.

خلاصات واستنباطات:

أولاً نستنتج أن القرآن الكريم لم يغلق باب الحوار مع أيٍّ كان، حتى مع من يدعي الإلحاد، وفي ذلك عبرة لنا، نحن المسلمين، اليوم، حتى تتسع صدورنا، وتنفتح حواراتنا على كل من له رغبة جادة في الحوار بغض النظر عن توجهه الأيديولوجي، أو انتمائه السياسي أو ما إلى ذلك، لأن المهم أن تظهر الحقيقة ويتحقق الشهود... وما يدريك لعل الله يهدي من تحاوره إلى الحق، ويلين قلبه للصواب بعدما بعدت الشقة بينه وبين الهداية.

ثانياً: نستفيد من هذا النص الحواري أيضاً أهمية البرهان العقلي الرصين في الحوار كسبيل من السبل الموصلة للإيمان، وكطريق لترسيخ القناعات بشكل عام، وبالإضافة إلى هذا الأسلوب الأمثل في الحوار ـ الأسلوب العقلي ـ هناك أساليب أخرى: كالأسلوب العاطفي، والأسلوب الحسي، وأسلوب حزب الشّبائه والأنظار، وأسلوب التحدي... ولكل مقام مقال ـ كما يُقال ـ والحكيم هو الذي يقول ما ينبغي، كيف ينبغي، متى وأين ينبغي.

الحوار مع المنكرين للنبوة :

النص القرآني:

(وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً. أو يكون لك بيت

من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً. وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً. قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً. قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً) الإسراء:٩٠ـ٩٦.

خلاصات واستنباطات:

أولاً: إن منطق المزايدات في العملية الحوارية منطق غير سليم، لذلك نرى الرسول ﷺ أمام طلبات المنكرين التعجيزية الساذجة ـ أنظر في الآية ٩٠ إلى الآية ٩٣، يقف عند حدود بشريته ويرد ببساطة ودون مزايدة (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً)، وهو ما ينبغي استحضاره من قبل أبناء الحركات الإسلامية اليوم في الجامعة والمجتمع.

ثانياً: تلمس في آخر النص أهمية الدليل العقلي المنطقي في المحاجة والحوار: (قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً)، وهذه الآية ومثيلاتها، اعتبرها بمثابة إشارات استفزازية ومنبهات للعقل المسلم حتى يصحو من نومه، ويفك عنه الطوق المضرب من جراء شيوع التقليد، وعزوف الناس عن الاجتهاد، وإعمال العقل والنظر.

ثالثاً: نستفيد من النهاية التي أنهى بها الرسول ﷺ حواره مع المنكرين للنبوة أنه ينبغي على الداعية المحاور في حال تعصب الطرف المحاوَر وتعنته أن ينهي الحوار معه كما بدأه فلا يتشنج ولا يغضب ولا يتوتر، لأن القضية قضية رسالة ودعوة يجب أن يغيَّبَ فيها الانتصار للذات.

رابعاً: ينبغي أن تحمل نهاية الحوار من المعاني ما يجعلها، إذا ما اختمرت في ذهن المتعنت، فاتحة وبداية لحوار جديد قد تكون نتائجه إيجابية... وهو ما نستشفه من قول الرسول ﷺ الأخير: (قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً)، فإن الآية تحمل من القوة والثقة بما يقدمه الرسول ﷺ، ما يجعل المنكرين لنبوته يراجعون ذواتهم وآراءهم ويعيدون النظر في ذلك كله.

الحوار مع أهل الكتاب :

النص القرآني:

(ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالله والذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون) العنكبوت:٤٦.

خلاصات واستنباطات:

ـ نستخلص من النص أصالة الحوار مع أصحاب الرسالات السماوية الأخرى، ما يمكن أن نسميه اليوم بحوار الحضارات، وهو أمر له أصوله في التاريخ الإسلامي أيضاً، فالرسول ﷺ تعاهد مع اليهود في إطار التعايش السلمي بين الأديان، وقصة حوار جعفر بن أبي طالب مع وفد المهاجرين للنجاشي ملك الحبشة وجماعته واضحة في هذا الشأن.

لكن إذا كان هذا هو موقفنا المبدئي في علاقتنا مع أصحاب الديانات الأخرى وهو: الحوار أو الجدال بالتي هي أحسن ـ وهو الموقف الذي يحاول الكثير الانطلاق منه لإضفاء الشرعية على مفاوضات السلام مع الكيان الصهيوني ـ فهل يا ترى يمكن اعتبار هذا الموقف ممكناً مرحلياً في واقعنا المعاصر، في ظل حرب الإبادة وصراع الوجود المعلن ضد المسلمين، وفي ظل كذلك اختلال موازين القوى ما يجعلنا نحاور من موقع ضعف وتنازل؟

في نظري الشخصي أرى أن ما سلب بالقوة لا يعود إلا بالقوة، والحوار الحقيقي هو الذي يكون من موقع قوة، أو على الأقل من موقع النِّدية، وليس من موقع ضعف وتنازل، خصوصاً فيما يتعلق بالقضايا المصيرية التي تحتاج إلى حسم، ما يطرحنا أمام تحد واقعي، وهو تحدي الرهان على أصول القوة، بالمفهوم الشامل للقوة طبعاً، وهو تحد شرعي قبل أن يكون تحدياً واقعنا، قال تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) الأنفال:٦٢، وآنئذ مرحباً بكل حوار عادل ومتكافئ.

الحوار القصصي :

(نموذج: حوار موسى مع فرعون)

النص القرآني:

(وإذا نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين. قوم فرعون ألا يتقون. قال رب إني أخاف أن يكذبون. ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون. ولهم عليَّ ذنب فأخاف أن يقتلون. قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون. فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بني إسرائيل. قال ألم نربّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين. وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين. قال فعلتها إذاً وأنا من الظالمين. ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين. وتلك نعمة تمنها عليَّ أن عبَّدت بني إسرائيل. قال فرعون وما رب العالمين.

قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين. قال لمن حوله ألا تستمعون. قال ربكم ورب آبائكم الأولين. قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون. قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون. قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين. قال أوَ لو جئتك بشيء مبين. قال فأتِ به إن كنت من الصادقين. فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين. ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين. قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم. يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون) الشعراء:١٠ـ٣٥.

خلاصات واستنباطات:

١ ـ ضرورة امتلاك عناصر القوة، أو بتعبير آخر ضرورة الإعداد التام قبل الدخول في أي عملية حوارية، تأسياً بموسى عليه السلام في قصته هذه مع فرعون... إذ تمثلت عناصر القوة بالنسبة إليه في أخيه هارون، وفي استجابة الله لدعائه، وحل عقدة لسانه، وكذا في معجزة العصا واليد البيضاء، وهو إعداد تام ومتكامل.

٢ ـ يجب على المحاور المسلم المؤمن ألا ينتصر لذاته، بقدر ما يجب عليه أن يحرص على انتصار الدعوة، وتفوق الرسالة، فموسى عليه السلام لما طلب من الله عز وجل أن يرسل معه أخاه هارون خوفاً من

أن يقتله فرعون كان يخشى على الرسالة أن تتوقف بقتله، لذلك أراد أن يصحبه هارون حتى إذا قتلوه حمل أخوه هارون أعباء الدعوة بعده.

٣- أن موسى عليه السلام كان جريئاً في قول الحق بلا حذر ولا تدرج منذ الوهلة الأولى للحوار، وهذا طبيعي - بالنسبة إليه - لأن الله طمأنه وعهد إليه بألا يمسه سوء من فرعون. أما نحن - كدعاة اليوم - انسجاماً مع طبيعة الواقع المعيش، وانسجاماً كذلك مع الخط العام للدعوة وما يقتضيه من تدرج، ومراعاة لطاقاتنا وإمكاناتنا، فإن الموقف الصحيح في تعاملنا مع طواغيت العصر هو أن نقول الحق على قدر المستطاع احتياطاً للدعوة حتى تستمر وتنتصر، وليس جبناً وزهداً في الجهاد بالنفس، وهذا الاحتياط في قول الحق أمام سلاطين الجور - من أجل الدعوة - لا يعني مطلقاً إقرارهم على المنكر والتواطؤ معهم عليهم.

٤ - نستنتج من حوار موسى مع فرعون كذلك، كيف أن موسى عليه السلام لم ينته ولم يصرفه هزء فرعون وسخريته وتهديده، عن هدفه المنشود، وهو بيان الحق والانتصار للدعوة، لذلك لم يتوتر ولم ينفعل في بداية الحوار إلى نهايته، وهذا خلق أساسي - خلق الأناة وربط الجأش - ينبغي أن يتحلى به كل الدعاة في حواراتهم الدعوية اليوم.

٥ - نستفيد كذلك من هذا النص الحواري أن على الداعية أن يتجنب الوقوع في زلة قد يستثمرها الطاغية للتشهير به إعلامياً - كقتل موسى للقبطي - وقد كان هذا شأن الرسول ﷺ مع من ظهر نفاقهم، حيث إنه امتنع عن قتلهم حتى لا يُقال إن محمداً ﷺ يقتل أصحابه.

٦ - على المحاور أن يدرك طبيعة المحاوَر ونفسيته، ويحاوره بناءً على ذلك، فموسى في حواره مع فرعون بدأ أول ما بدأ بالعزف على الوتر الحساس بالنسبة لفرعون، أو على العقدة القائمة في نفسه وهي ادعاؤه الربوبية، لذلك خاطبه بقوله: (إنا رسول رب العالمين). وانظر كيف عبر بصيغة المفرد «رسول» عوض «رسولا» دلالة على وحدة الرسالة وإن تعدد المرسَل.

٧ - عدم حرق جميع الأوراق مرة واحدة، فهذا موسى عليه السلام ترك أمر معجزاته جانباً ولم يظهرها إلا في الوقت المناسب وهو الوقت الذي هدده فيه فرعون بالسجن وهذا ينسجم مع القاعدة الحركية التي تقول: (ليس كل ما يعرف يُقال، وليس كل ما يُقال حان وقته، وليس كل ما حان وقته حضر أهله».

٨ - على الداعية أن يشعر دائماً بأن الله معه ويستحضر معونته ونصره سبحانه وتعالى، حتى يقوى على مجابهة المواقف الحرجة، ويتمكن من تجاوز كل العراقيل والصعاب.

٩ - كما أننا نستفيد من رد موسى عليه السلام على فرعون لما سأله: (ما رب العالمين)؟ - وأداة الاستفهام «ما» هنا تدل على أنه طلب معرفة حقيقة الرب، فقال موسى: (رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين)، إنَّ الذي يجب أن يحكمنا في حواراتنا مع الآخرين هو البعد المقاصدي، فنقف عند حدود ما فيه مصلحة أو من ورائه فائدة، ونصرف الإجابة إلى هذا الاتجاه حتى تتعطل المصلحة بعيداً عن الجدال العقيم، وهو ما فعله الرسول ﷺ مع من سألوه عن الأهلّة: ظهورها، ونموها، وتناقصها، ما بالها تصنع هذا؟ فوجهه الله تعالى إلى صرف الإجابة إلى ما هو أهم وعملي في حياتهم بقوله: (قل هي مواقيت للناس والحج)(٥).

١٠ - على المحاور أن يعرض أفكاره بكل وضوح مدعومة بالدلائل والحجج كما فعلَ موسى عليه السلام، فإن ذلك يؤدي إلى أحد أمرين:

الأمر الأول: أن يفتح الله على المحاوَر فينفتح - بكل روح حوارية - على الحق ويتبنى الصواب.

الأمر الثاني: أن يعاند ويتعنت على وضوح الفكرة وقوتها، فيكون المحاور قد أدى رسالته وقام بواجبه، وحقق عليه الشهادة، كما قال تعالى: (ليهلك من هلك عن بيِّنة ويحيي من حيَّىٰ عن بيِّنة وإن الله لسميع عليم) الأنفال:٤٢.

١١ - نستخلص من قصة موسى عليه السلام مع فرعون أيضاً مسألة مهمة وهي أن تمرد الطغاة وتعنتهم يرجع في الأصل إلى سببين:

السبب الأول: طبيعتهم النفسية: التكبر والاستعلاء والتجبر والظلم والاستبداد.

السبب الثاني: «البطانة أو الحاشية التي تقوم بتزيين وتبرير مواقف الطاغية من جهة وتشارك في التخطيط وفي وضع القرار بالشكل الذي يخدم مصالحها ومصالحه من جهة أخرى.

١٢ - الإيمان العميق بأن الإنسان مهما طغى وتجبر وابتعد عن الله فإنه يظل متحسساً لدعوات الحق ومعاني الخير من خلال الدوافع الخيرة المنطلقة من فطرة الله التي فطر الناس عليها، الراقدة في أعماقه، المستيقظة - في بعض الحالات - على صوت خير، وكلمة حلوة، تنفتح عليها الروح في حالة الهدوء والتأمل... ولذا فإن علينا أن نلقي إلى كل إنسان - مهما كانت درجة انحرافه - بالكلمة الحلوة والصوت الخير المملوء بالمحبة فربما يلتقيان بالجو الروحي الهادئ الذي يكون منفتحاً على الهداية من خلال ذلك كله... وربما كان هذا هو السر في التوجيه الإلهي لموسى وهارون، أن يتحدثا - مع فرعون - بالقول اللين، أملاً في أن يتذكر بتذكيره بمعاني الخير وأن يخشى بتخويفه من المصير المظلم الذي يستقبله عند الله إذا استمر في طريقه المنحرف في أجواء الضلال»(٦).

١٣ - الحوار قد يستفيد منه غير المعني به أو الموجه إليه مباشرة - كما هو الشأن بالنسبة لمن آمن مع موسى عليه السلام ومنهم السحرة - الشيء الذي يبعث الداعية على التفاؤل دائماً، وعدم الاستسلام لليأس، مهما تكن النتائج الظاهرة للحوار، مادام القصد هو الله تعالى، ونصرة الحق. ■

الهوامش:

١ - في ظلال القرآن الكريم: سيد قطب ١/٥٧.

٢ - محمد حسين فضل الله، المنطلق، ع ٩٨، ص١١٨.

٣ - مجلة الفيصل، ع: ١٨٨، ص ٢٥.

٤ - مجلة الفيصل، ص:٨.

٥ - والآية كاملة هي: (يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج) البقرة:١٨٩.

٦ - «الحوار في القرآن» حسين فضل الله، ص: ٢٧٠.